الفصل الأول

الهندوسيـــة

الهندوسية ديانة فريدة بين مجموعة الأديان. وإنه لمن الصعب أن نجد في الأدب الهندوسي ما يدل على وجود الوحي كما يُفهم الوحي في الأديان السماوية التقليدية. فمن ناحية.. تقتصر فكرة الوحي كلية على تعاليم "الفيدا"، الكتاب المقدس لدى الهندوس، بينما من ناحية أخرى.. يُقال إن الله تعالى قد تجلى بنفسه في صورة آدمية لتعليم بني البشر.

ورغم أن المسيح عليه السلام يُعتبر في المسيحية بشكل يشابه ذلك الذي يشغله كرشنا عليه السلام في الهندوسية، إلا أن المماثلة بينهما في الواقع سطحية. ففي موضوع تجسد المسيح.. نجد أن الرب الأب يظل هو المهيمن على الكون، وتجلي الابن يظهر بصورة ما في الشكل الآدمي ليسوع. كذلك نجد في المسيحية أقنوما ثالثا يسمى الروح القدس، وهو ليس يسوع (الابن) ولا هو الإله الأب، ولكنه جزء لا يتجزأ من الثالوث المقدس.

أما الهندوسية فليست على وضوح فيما يتعلق بتجلي براهما في شخص كرشنا.. هل كان براهما يحكم السماوات والأرض من كرسيه السماوي حتى حينما كان كرشنا على الأرض، أم كان كرشنا.. كإله متجسد.. هو الذي يحكم الكون خلال طوره الإنساني؟ وهل كان كرشنا مجرد ظهور أو صورة بينما ظل الله مهيمنا على السماوات كما كان دائما؟ إن هذه الأسئلة وما شابهها تظل بغير جواب.

وأيضا.. فيما يتعلق بالوحي.. نجد أن المسيحية تتفق تماما مع ما تؤمن به الأديان التقليدية عن طبيعة الوحي من السماء. أما في الهندوسية.. فإن شكل الوحي يختلف عما تقول به الأديان التقليدية. فلكي يحقق الله هدف

وجود إنسان كامل يكون أسوة للناس، تجلى الله بنفسه في صورة إنسان، و لم يجد ضرورة لاستخدام واحد من البشر لهذه المهمة.

أما موضوع "الريشي القدماء" الذين يُقال إنهم كانوا يتلقون تعليم "الفيدا" فهو يختلف عن ذلك. فإن كلمة "ريشي" هي كلمة هندوسية تعني رجل الدين الذي قطع كل العلائق مع العالم المادي وأسلم نفسه تماما لإرادة الله تعالى. ورغم أن "الفيدا" يُعتبر كتابا يحتوي التعاليم السماوية، فليس هناك تعليم واضح يبين أن "الريشي" قد تلقوا وحيا في صورة رسالة كلامية محددة. وربما يظل الأمر مبهما إلى الأبد فلا نعرف ما إذا كانت إلهامات أو خواطر "الريشي" يمكن أن تُسمى وحيا.. بكل ما تحمله كلمة الوحي من معنى، فإن ما نعلمه عن المصادر الهندوسية مستقى كلية مما يؤمن به الهندوس. ورغم أن مختلف العلماء يتحدثون عن عصور مختلفة فإن العلماء جميعا متفقون على أن "الريشي" هم الأقدم من بين البشر على الإطلاق.

إن هذا الوصف للهندوسية يمكن أن لا يكون سوى نتاج الخيال الإنساني. فالإنسان دائما يحرِّف ويسيء التفسير، بل ويسيء استعمال التعاليم السماوية بعدما يأتي الأنبياء ويذهبون، فلا عجب أن تكون رسالات الأنبياء الهندوس قد حُرّفت شكلا ومعنى من قِبَل أجيال الذين جاءوا فيما بعد. وحينما نقول إن "الفيدا" قد حُرّف فإننا لا نعني أن أيدي البشر قد عبثت بجميع تعاليم "الفيدا" وغيرتها تماما، فإن الله تعالى لا يسمح أبدا بهذا التحريف الكامل والتغيير الشامل للتعاليم السماوية، بل دائما يتبقى شيئا من الحقيقة الأصلية، لا تمسها يد ولا ينالها تحريف. وفي ضوء هذه الحقيقة نجد أن الدراسة المتأنية لكل دين من الأديان في مصادره الأولى تكون دائما مجزية ومُرْضية. وبإمعان النظر المتفحص للمصادر الهندوسية يتبين أنها لا تختلف عن الأديان السماوية الأخرى فيما يختص بالأمور الأساسية التي تشترك فيها جميع الأديان.

وحينما نحرك المنظار الذي نتفحص به الديانة الهندوسية حركة بسيطة نجد أن المنظر الذي نراه يتغير تماما. ويمكن تقديم ما يكفي من الأدلة من خلال الكتابين "مهابهارات *Mahabharat*" و"الباغفاد جيتا *Bhagavad Gita*" أن كرشنا لم يدّع الألوهية أبدا لنفسه، ولا حتى ادعى الخلود والبقاء الأزلي. فيمكن بسهولة اعتبار كرشنا كواحد من أنبياء الله تعالى، لا يختلف عن هؤلاء الذين ظهروا من قبله أو جاءوا من بعده خلال ما سُجل ودُوّن من تاريخ الأديان.

وحسب ما دَوّنه كُتاب سيرته الذاتية الموثوق بهم.. فإن كرشنا قد وُلد على هذه الأرض حوالي عام ١٤٥٨ قبل الميلاد كأي طفل بشري آخر لوالديه "باسيوديبا *Basudeba*" وزوجته "ديبوكي *Deboki*"، وقد سمياه: "كيناي *Kinai*". وقد سُمي "كرشنا *Krishna*" فيما بعد، ويعنى الاسم: الشخص المستنير. ويُذكر عنه أنه عاش طفولة عادية تتخللها ومضات متوهجة من الأمور الخارقة للطبيعة (تماما كما ينسب الأتباع هذه الخوارق إلى الكثير من الأنبياء). وقد عاش كما يعيش البشر، وكان يتصرف كغيره من البشر، وكان يلبي نداء الطبيعة ككل البشر. وأثناء طفولته كان في بعض الأحيان يقترف من الأعمال ما يصدر عادة عن بعض الصغار في البيئة التي كان يعيش فيها، كسرقة كيلو أو اثنين من الزبد، أو على الأقل هذا ما ينسبه إليه الكاتب الهندوسي في تحليله. غير أننا لا نعتبر أنه ارتكب جريمة، فإن الأطفال من ذوي القلب الطيب قد يُقدمون على ارتكاب مثل هذه الأعمال بقصد مساعدة زملائهم الفقراء، وفي هذه الظروف تكون أفعال مثل هؤلاء الأطفال مدعاة لإثارة العطف والحب بدلا من إثارة السخط والغضب. وهذه كلها أمور من طبيعة الإنسان، ولا يختلف الطفل فيها.. سواء في مولده أو في نمط حياته.. عن بقية أنبياء الله. وقد شب كرشنا ليكون شابا فتيا قويا، واكتسب وأظهر صفات قيادية فذة. وفي ساحات القتال كان يقود الجيوش ليحقق

انتصارات باهرة. وفي شؤون الحياة العادية برز ليكون قدوة حسنة، وقام بواجبه كمصلح عظيم، ندر أن يُرى مثله في تاريخ الهند. كان يحث الناس على أن يتمسكوا بالتقوى والصلاح، ويتجنبوا الشرور والآثام. وكان يرى ضرورة القضاء على الأشرار الذين يريدون أن يمحوا الدين وينشروا الكفر والإلحاد.

وأما فيما يتعلق بشكله الجسماني فإننا نجد بعض الأشياء الغريبة. إذ أن صـــورة "لورد كرشنا" كما يصورها الفنانون الهندوس تجعل له أربع أذرع بـــدلا من اثنتين، كما تجعل له أجنحة أيضا. وعادة ما تُرسم صورته واقفا وعـــلى فمه ناي، وتحيط به مجموعة من الفتيات الحسان يرتدين ثيابا زاهية الألوان، وهؤلاء هن "الجوبي Gopis". والجوبي لفظ يُطلق على الصنف من النساء اللاتي يرعين البقر.. أي الراعيات، وهو اللفظ المرادف للفظ راعية الأغنام. ويجب أن نذكر هنا أن لقب كرشنا نفسه كان "جاوبال *Gao'pal* " الـــذي يعني: "راعي الأبقار". وحين نقرأ هذه الأمور في ضوء الكتاب المقـــدس الذي يذكر أن أنبياء بني إسرائيل كانوا رعاة يرعون خراف بني إســـرائيل، فـــإن المماثلة بين الاثنين تبدو واضحة الملامح. وحيث إن الهند كانـــت بلادا تنتشر فيها الأبقار بدلا من الخراف والأغنام، فإن العامة من الناس يُطلق عليهم لفظ الأبقار بدلا من الخراف، وبالتالي حين يُطلق على كرشنا وصف "راعي الأبقار" يكون الأمر مفهوما تماما. وأيضا يكون من المفهوم تماما أن يُطلق على تلاميذه أو حواريه لفظ "جوبي".

والكثير من الأوصاف الأخرى التي صيغت حول صورة كرشنا، يمكن أيضا اعتبارها من الأمثال والكنايات والقصص الرمزية، بدلا من اعتبارها حقائق حَرْفية. فمثلا.. ما يتعلق بصورة كرشنا التي لها أجنحة وأربعة أذرع، فيمكن تفسيرها رمزيا لتعني أن الله تعالى يُنعم على عباده الصالحين بقوَى وملكات خاصة. وفي القرآن الكريم نجد ذكر الجناح في حق رسول الله ﷺ، فقد أمره الله تعالى أن يخفض للمؤمنين جناح الرحمة.

وكذلك جاء ذكر الملائكة ولهم أعداد مختلفة من الأجنحة، وهذه هي الصفات المختلفة لهؤلاء الملائكة، وليست بالطبع أجنحة مادية من الريش.

ولكن يحدث أن أتباع الأديان يأخذون عادةً الكنايات والاستعارات والأمثال الدينية بمعناها الحرفي ولا يلتفتون إلى المعاني المجازية وهكذا يفقدون معانيها الحقيقية نهائيا. وصورة اللورد كرشنا وما يظهر حوله ليست استثناء من هذا.

ويُطلق على كرشنا أيضا لفظ "مُرْلي دَهْر *Murli Dhar*" الذي يعني "عازف الناي". ومن الواضح أن الناي هنا يرمز للوحي، لأن النغمة التي تخرج من الناي ليست من صنع الناي نفسه، وإنما هو يُخرج الأنغام التي تُنفخ فيه. والناي هنا يرمز للورد كرشنا نفسه والذي ينفخ فيه هو الله، ومهما كانت "الأنغام" أو الكلمات التي ينفخها الله فيه فإنه.. كالناي.. ينقلها بذاتها وبكل أمانة إلى العالم. وهكذا لا تختلف حقيقة كرشنا عن حقيقة أي نبي آخر يكون حارسا أمينا على رسالة الله تعالى، فيبلغها بنصها وفصها إلى الناس دون أدنى تغيير. ويكون الناي في هذه الحالة مجرد رمز لأمانة النبي، يؤكد للناس على أنه لا يقول شيئا من عند نفسه سوى ما أُوحي إليه من السماء.

ولنلتفت الآن إلى سمة أخرى من السمات الأساسية للهندوسية، التي لا يشاركها فيها سوى القلة من الأديان الأخرى.. أشهرها البوذية، ونحن نقصد بالطبع عقيدة تناسخ الأرواح. فإن هذه العقيدة متوائمة مع العقائد الهندوسية الأخرى التي تتعلق بأزلية الروح والمادة من ناحية، وأزلية الإله الأعظم والآلهة الأخرى الأقل منه شأنا من ناحية أخرى. وحسب هذه الفلسفة.. فإن الحياة على هذه الأرض لم تنشأ كخلق جديد تماما. فكل كائن حي يتكون من مكونات أزلية.. رغم أنه هو نفسه ليس أزليا. وتكون الأرض هي الأم بالنسبة لهم كمثل المعمل الذي تختلط فيه المكونات، حيث تختلط الروح ببعض الأجزاء المادية، وتتشكل معا لإنتاج جم غفير من

الأشكال الحية. وهكذا فإنهم يؤمنون بأن القوى الخالقة عند الله تعالى هي قوى مَزْجٍ وخلطٍ فقط، مثل تلك التي للصيدلي الذي يُحضّر الدواء، أي أنه لا يملك قوة الخالقِ الذي يستطيع أن يخلق شيئا من لا شيء.

ومفهومهم للكون يشمل ثلاث مستويات للوجود.. المستوى الأول والأعلى يشغله "براهما Brahmâ"، الإله الرئيس، ومعه الكثير ممن هم أقل منه درجة، يقومون بأعمال معينة في الكون وهم منهمكون فيها تماما. فالبعض منهم مسؤول عن رفع السحب أو خلق الصواعق، والبعض الآخر مسؤول عن شؤون الإدارة وإبقاء فعالية الظواهر الطبيعية. وهم يتمتعون بقدر من الحرية في حدود مقامات كل منهم، ومن النادر أن يقع صدام فيما بينهم، ولكن إذا وقع.. فالويل للكون من ذلك، إذ تهب العواصف العاتية في السماء، وتنصب جامات الغضب على الأرض. ومن المفيد دائما أن يكون المرء في الجانب الصحيح لهؤلاء الآلهة أو الآلهات، وإلا فإن غضبهم يمكن أن يكلف المخلوقات الفانية الشيء الكثير. وهناك آلهة ذكور وإناث للثروة، وهناك آلهة ذكور وإناث للخصوبة والإنجاب، وهناك آلهة ذكور وإناث للصحة والعمر الطويل وما إلى ذلك. والآلهة الخرافية التي تشغل هذا المستوى تتمتع بالخلود الأبدي.

المستوى الثاني.. أي المستوى المتوسط للوجود يشمل الروح والمادة. والروح والمادة حين تجتمعان يتكون منهما المستوى الثالث الأدنى للوجود المرتبط بالحياة على الأرض. وحسب هذه الفلسفة الهندوسية فإن "براهما"، الإله الرئيس بين بقية الآلهة، هو وحده الذي له القدرة على أن يربط الروح بالمادة لكي يخلق الحياة على الأرض.

كيف ومتى بدأ هذا الإجراء ولأي غرض.. هذا ما يبحثه بالتفصيل الأدب الفلسفي الهندوسي المتعلق بتعاليم الفيدا. ولا يؤمن الهندوس بأن الحياة بدأت على الأرض بالأسلوب الذي يقول به العلماء المعاصرون. فلم تظهر الحياة بظهور الكائنات البدائية الأولى والخلايا الحية في حساء

المحيطات أو على سطوح الصخور منذ آلاف الملايين من السنين. وقد كتب "البروفيسور ج. فيرمان Professor J. Verman" في كتابه: "الفيدا The Vedas" فقال:

"... إن العلماء الذين غُذِّيَت عقولهم بأكاذيب نظرية دارون في التطور.. يجدون أنه من الصعب عليهم أن يفهموا أسرار الوحي. ومع ذلك.. فإن لدينا من الدلائل الدامغة ما يُبين أن المرحلة الأولى للإنسان كانت أفضل، ولا أساس للاعتقاد بأن إنسان ما قبل التاريخ كان بالضرورة إنسانا بدائيا. إن رجال "الريشي" الذين تذكرهم الفيدا لم يكونوا أناسا بسطاء، بل كانوا شعراء، ذوي بصيرة، وروحانيين في نفس الوقت. وكان تلاميذهم وهم أيضا من الريشي كما يحق لهم أن يكونوا.. كانت لهم القدرة على فهم أهمية "المانترا Mantras" (أي المزامير أو الأغاني الروحانية) في اللحظة التي يسمعونها فيها... وقد أُخبرنا أيضا أنه قد حدث تدهور تدريجي في القوى النفسية والذهنية للناس، وبدأت أجيال الكُهَّان تتلاشى أيضا".[1]

وهكذا.. حسب مفهومه لتدبير الله في الخلق.. خُلقت الأرض أزلية وظلت مستمرة ومستمرة ومستمرة، وهكذا أيضا كانت الحياة على الأرض. فعند مولد كل أرض جديدة يولد أيضا عالم جديد. وعند بدء خلق العالم يوحي براهما إلى الريشي بالفيدا، وهي دستور الكون، ومنها يستّون القوانين التي يحكمون بها أعمال الناس الآخرين على الأرض. وعلى ذلك فإن الحياة بدأت على الأرض بالإنسان، ولم تسبقه في الوجود الكائنات الأخرى.

ويشرح مقطع آخر من نفس الكتاب بشكل أوضح دور "الريشي" الأربعة الجالسين على سطح العالم وما يمكن أن يورثوه للأجيال المستقبلة من البشر، فيقول:

"... أربعة من الكهان هم أجني Agni، وفايو Vaayu، وسوريا Soorya، وأنجيرا Angiraa، الذين كانوا في الحقيقة رجالا ذوي براعة

ذهنية فائقة ودرجة روحية عالية، تحركهم مشاعر الجمال وسحر مناظر الخلق البهية وهم يُطلون من فوق سطح العالم من المنطقة المقدسة في البحيرة المشهورة "ناناساروفارا Naanasarovara" في "تريفيشتابا Trivishtapa" (وهي تقع في التبت الحديثة) التي تعتبر أرض الآلهة، في المقابل من جبال الهملايا، منبع الأنهار العظمى مثل نهر "الجانجا Ganga" ونهر "السندهو Sindhu" ونهر "شاتادرو Shatadru" ونهر "براهمابوترا Brahmaputra"، والتي تحيط بها القمم العالية التي تغطيها الثلوج البيضاء، والظواهر الطبيعية الخلابة، فتمتلئ قلوبهم بالنشوة والطرب، وتتسامى حواسهم، وتحلق أرواحهم وترتفع، وتمتلئ عقولهم بالرغبة في اكتساب المعرفة، وهم في حالة واعية مدركة، فينتقلون إلى حالة تأملية عميقة باذلين أقصى جهدهم. وحينئذ ينظرون في دوائر الحقيقة التي تختلف عن العالم المادي ويستمعون إلى الصوت المقدس الأزلي، الصوت المتكلم من داخل النفس، وفي نفس اللحظة يرون الحقيقة..." [٢]

وعلى ذلك فإن تعاليم الفيدا كما يفهمها الباندیت.. أي الفلاسفة الهندوس.. تريدنا أن نعتقد بأن الحياة لم تتطور بل تردت من حال إلى حال. فإن الأجيال الإنسانية.. التي من المفروض أن تولد في المستقبل البعيد منذ زمن "الريشي" الأربعة العظماء الأوائل.. كان من المقدر لهم أن تتدهور جميع مواهبهم وقدراتهم بالمقارنة مع الرجال الأوائل. وهذا التدهور في المواهب والقدرات يشمل أيضا سلوكهم الأخلاقي. إن الفلسفة الهندوسية للكارما "Karama" (أي الأعمال) وتناسخ الأرواح تحوي نذير شؤم للجنس البشري. فحسبما يقوله البروفسور فيرمان:

"تدمير الحياة المستقبلة يعني أن يكون المرء مستعدا لكي يولد بين أنواع من الكائنات الحية أقل شأنا من البشر، فهذه هي ثمرة الأعمال، وهذه هي عقوبة الأعمال السيئة. وتأتي العقوبة في صورة حرمان من المواهب والأعضاء الإنسانية من إحساس وقدرة على أداء الأعمال. هذه هي عقيدة الكارما، وهذه هي الكيفية التي يعمل فيها التشريع الإلهي، وهو يسمى حكم قانون الطبيعة". [٣]

ونحن نرى أنه بنسبة هذه العقيدة إلى تعاليم الفيدا.. فإن الهندوس لم يصيبوا عدلا في الحفاظ على شرف الفيدا. فإذا أُخذت مثل هذه العبارات حرفيا.. لاستوجب الأمر أن يُعاد كتابة أصل الحياة كلية. وفي الصيغة الجديدة للحياة سوف تلعب "كارما" بالتأكيد دورا رئيسا، وتكون معركة البقاء وبقاء الأصلح والطفرات في الجينات التي يتحدث عنها أصحاب مبدأ النشوء بحماس شديد، يكون من المحتم رفضها تماما واعتبارها مجرد خيالات علمية، كما لو أنه لا توجد حبة من خردل من دليل على صحتها. وعلى ذلك يكون المفتاح الوحيد المتبقي لحل لغز الحياة هو الكارما.

وباتباع هذا الخط في التفكير يمكن لنا استنتاج أن الحياة قد بدأت رحلتها بخلق رجال مقدسين على أعلى درجة من القدسية والصلاح، ولكن بعد أن وُلدت الأجيال المستقبلة بدأ الناس يتدهورون ذهنيا وجسديا وروحيا، ولم يستغرق الأمر طويلا حتى ملؤوا الأرض بالخطايا والآثام. ومع الخطيئة أتى العقاب الإلهي الذي سرعان ما جعلهم يفقدون الحالة الإنسانية. ولا بد أن الناس قد أصيبوا بصدمة شديدة وكآبة بالغة وهم يرون أن البشر يتحولون إلى حيوانات في درجة أقل، ولكن لم يكن لهم سوى أن يلقوا باللائمة على ذنوبهم التي كانوا يرتكبونها. فإن قانون الكارما يجب أن يَنفذ، والخطيئة يجب أن تحقق أثرها. وعلى هذا لم يكن من الغريب على أولئك الناس أن يروا خلال مراحل الولادة.. مولد العديد والكثير من أنواع الحيوانات بدلا من الأطفال الطبيعيين.

وربما لا تكون هذه هي الصورة التي تخيلها علماء الدين الهندوس لنشأة أنواع الحياة وكيفية عمل قوانين الكارما. ففي غياب نص صريح واضح عن هذا الموضوع.. يمكن التكهن ببعض التفسيرات التي تكون في إطار المعتقدات التي يؤمنون بها. وربما تصوروا أن مغاليق أسرار الحياة على الأرض قد تفتحت بشكل مختلف. فبعد أن بدأ الإنسان يتدهور في رحلته

الدنيوية.. كلما ابتعد عن زمن الريشيي الأربعة الأُوَل، فإن قدرته على الإنجاب بدأت تضمحل، ثم انتشر وباء من العقم على نطاق واسع، مما أدى إلى نقص كبير في أعداد البشر بسرعة، بينما.. ويا للدهشة!!.. بدأت تنشأ آلاف مؤلفة من الأنواع الحيوانية من سطح الأرض. فانفرجت الأرض هنا وهناك وخرج منها الفيلة والأسود، وكذلك ظهرت القطط والكلاب والضباع والذئاب. ومن المياه انبثقت الأسماك بكل حجم ولون وشكل، وسرعان ما لحقت بهم الزواحف والسلاحف. ثم فجأة بدأت الحشرات تغزو المملكة الحيوانية كما لو أنها كانت أفواجًا من الجراد التي ظهرت فجأة وبغير مقدمات. وتحت هذه الأشكال المرئية من الحياة تأتي المملكة غير المرئية من البكتريا والفيروسات التي تكون قد تكاثرت بشكل أسرع وأوسع. ولكن.. ويا للأسف الشديد.. فرغم كل محاولات وإنذارات الريشي الأربعة فإن الإنسان رفض أن يخضع، واستمر في تمرده على تعاليم الفيدا. وكنتيجة طبيعية للآثام والخطايا التي ارتكبها البشر.. فإن عملية تناسخ أرواحهم وعودتها إلى الحياة مرة أخرى في صورة حيوانية أقل شأنا من الإنسان.. لا بد أن تكون قد تمت بروح انتقام شديدة.

ولما لم يعد هناك مكان على سطح كوكب الأرض أو في أعماق المحيطات، بدأ الإنسان يتولد داخل أمعاء البشر أيضا. فماذا عن الديدان المستديرة، والديدان المبططة، والديدان الشريطية، والديدان الخيطية – التي لا يمنعها خُلق من شفقة من الفتك بالأطفال – ثم هناك أعداد لا حصر لها من الأشكال الفيروسية والبكتيرية التي تناسخت فيها أرواح البشر السابقين، وغزَتْ أجسام البشر اللاحقين من خلال مجاري الدماء، أو في الأوعية الشعرية، أو خلايا أنسجة الجسم، أو الأعضاء الحيوية الهامة، ولن تنجو من هذا الغزو الأنسجة الليمفاوية ولا حتى النخاع العظمي. فما أشدَّها سذاجةً هذه النظريةَ التي تجعل عقاب الإنسان بيده هو نفسه، ومع ذلك فإنه لا يعتبر ولا يتعظ!

لا شك أن هذا نظام عجيب وتقدير غريب!! وهذا هو النظام الذي يؤيده البروفيسور فيرمان ويدّعي أن هناك من "الدلائل الدامغة" ما يؤيد صحته! والغريب في هذا النظام أن البشر مع مرور الوقت قد استمروا في ارتكاب الذنوب أكثر فأكثر، ومع ذلك لم تقِلّ أعدادهم، بل على العكس نرى أن أعدادهم تزداد كثرة باطراد كبير.

ويأخذنا هذا الخط من التفكير إلى العهود القديمة.. حينما بدأت الحياة بخلق أربعة من الريشي.. وأعداد كبيرة من البشر العاديين. فإذا ظل الإنسان في أحسن حالات سلوكه الروحاني والاجتماعي، فإنه ما كان ليتناسخ في أشكال متدنية من الحياة بعد أن تموت تلك الأجيال. فإن نظام الكارما يضمن أنه طالما ظل الإنسان محافظا على حالة الفضيلة هذه.. لكان من المستحيل أن يأتي إلى الوجود أي نوع من أنواع الحيوانات، فإن الحيوانات لا تأتي إلى الوجود إلا نتيجة عقاب الأجيال العاصية من البشر.

ويبدو أن البروفيسور فيرمان لديه بعض الردود على هذه المعضلة. فالأجيال الإنسانية حين ابتعدت زمنيا عن الأجيال الصالحة التي كان يعيش فيها الريشي.. بدأت تلك الأجيال الإنسانية في التدهور أخلاقيا. ومن الواضح حينئذ أنه في اللحظة التي صار الإنسان فيها آثما، فإن أبواب خلق الكائنات الحيوانية الأخرى انفرجت مفتوحة على مصراعيها، ومنذ تلك اللحظة وما تلاها.. لم يكن هناك نقص في الأرواح الخاطئة التي يُحكم عليها بأن تتحول إلى كائنات متدنية أحط من الإنسان في مراحل تناسخ الأرواح التي كُتب عليها أن تمر بها.

ولكن هذا النظام لا يمكن أن يعمل إلا إذا بلغ عدد البشر في ذلك الوقت آلاف الملايين من المرات أكبر مما هو عليه اليوم. فإن مجموع أرقام الحيوانات في كل الأنواع الحيوانية تبلغ تريليونات التريليونات. وبالتالي فإنه من الممكن استنتاج أن كل هذه الكائنات الحية.. بدءا من البكتريا إلى أعلى فالأعلى.. كانت كلها في يوم من الأيام من البشر. وعلى هذا..

فلا بد أن يكون عدد البشر في زمن وجود الريشي الصالحين قد بلغ أرقاما فلكية، ضاربا بكل الحسابات عرض الحائط، وبالتالي فلا بد أن يكون حجم هذه الأرض أضخم من حجمها الحالي بمليارات المرات، حتى يمكن أن تستوعب أعداد البشر الصالحين القدماء الذين كانوا من أتباع تعاليم الفيدا.

وبالمناسبة.. فإن العلماء يخبروننا أيضا أن أرض التبت.. حيث يُقال إن الريشي الأربعة كانوا يجلسون عند بدء الزمن.. لم تكن قد خُلقت بعد، بل إنها جاءت إلى عالم الوجود فيما بعد.. في وقت متأخر منذ ما يقرب من مليار عام، وتكونت نتيجة لحركة القارات ثم الاصطدام الذي وقع بينها. إن هذا التناقض بين التصريحات المختلفة التي يدلي بها الجيولوجيون وتلك التي يخبرنا بها علماء الفيدا.. تلقي ظلالا من الشك على منظر الريشي الأربعة وهم يراقبون العالم يمر أمامهم وهم في موقعهم العالي فوق سهول التبت العالية. ولكن بطبيعة الحال من حق علماء الهندوسية، مثل البروفيسور فيرمان، أن يستبعدوا هذه الحكايات التي يختلقها الجيولوجيون باعتبارها هراءً خاويًا من كل عقل تماما مثل نظرية النشوء والارتقاء التي يجب أن تُلقى هي الأخرى في سلال المهملات باعتبارها هلوسة علمية!!

وعند الرجوع مرة أخرى إلى موضوع الوجود البشري الذي انبثق من الصلب المقدس للريشي العظام الأربعة.. فلا بد أن هذا الصلب المقدس يكون قد تضخم إلى أحجام هائلة لأنه من المفترض أن يكونوا هم آباء جميع أنواع الحيوانات التي سوف تأتي من بعدهم. فإن الأرواح الخاطئة لهؤلاء هي التي سوف تنحط من مقامها ودركتها لتتحول إلى حيوانات في المملكة الحيوانية. وعدد الناس الذين كانوا يعيشون في ذلك الوقت لا بد أن يشمل جميع أعداد الحيوانات والكائنات الحية التي سوف توجد فيما بعد. وإن المرء ليشعر بالحيرة والارتباك إذا حاول أن يتخيل منظر تلك الجحافل البشرية

الهائلة تتلوى وتضطرب كأنها جبال من الديدان على سطح هذا الكوكب الصغير الذي يسمى الأرض. وكل هذا يمكن متابعته من سطح أي مكان، سواء كان اسمه التبت أو الهملايا، فسوف يبصر الرائي بشرا من وراء بشر في كل مكان، ولكن.. ليس هناك من لقمة واحدة لتؤكل!

وعند إعادة بحث موضوع الكارما.. علينا أن نعود إلى مناقشة الموضوع بطريقة علمية. فإن مصير كل جيل من الأجيال البشرية يتوقف كلية على الأعمال التي قام بها الجيل الذي يسبقه. فالروح ذاتها كيان محايد، وكذلك المادة التي ترتبط بها الروح. وعلى هذا يكون السؤال الذي يحاول الحكماء الهندوس أن يجدوا له جوابا يتعلق بالحكمة وراء سياسة الخلق عند الله تعالى. فإذا كان هو إلها عادلا، كما يقولون، فلماذا يُبدي محاباة للبعض على حساب الآخرين؟ ولكي يجيبوا على هذا السؤال، الذي يبدو أنه لا إجابة له، نراهم يقدمون فلسفة الدائرة اللانهائية الأزلية للأعمال والمجازاة والعقوبات على الأعمال. وتناسخ الأرواح هو المبدأ الذي يعمل كدائرة مستديمة للعلل والمعلولات، للجريمة والعقاب، للخير والجزاء. وعلى عكس وجهة النظر هذه.. فإن صورة الإله التي تقدمها الأديان الكبرى الأخرى في العالم هي صورة الكائن الكامل القدرة والكامل العظمة، الذي يستطيع أن يخلق ما يشاء حين يشاء. وبهذا يكون هو المالك الأعظم لكل الخلق، وله الحق المطلق في أن يقضي على خلقه إذا شاء. إن يديه ليستا مغلولتين، وهو القادر على أن يفعل ما يشاء. ولذلك لا يقوم مبدأ العدل على ما يتعلق بخيار خلقه. ومع ذلك.. فلأنه هو الحكيم الأعظم، والمقسط الأعظم، والقدير الأعظم، فإنه يُوَفر بدرجة الكمال كل ما يحتاجه كل كائن حي داخليا وخارجيا. وهكذا يمكن للأميبا أن تشعر بسعادة في محيطها الخاص.. تماما كما يشعر الملك العظيم وهو جالس على كرسي عرشه.

غير أن هذه الحرية لا يمكن بحق أن يتمتع بها إله الميثولوجيا الهندوسي، فكونه ليس خالق الروح والمادة، لا يكون له حق التدخل في

حرية الروح والمادة، وليس له أن يفرض عليهما العبودية له. كذلك هناك أيضا مسألة حرية الاختيار عند كل مرحلة من مراحل الخلق. لماذا يكون واحد من أصناف الخلق أفضل من غيره، أو أن يوضع في مقام أعلى من غيره؟ ولماذا يولد واحد في قصر الملك أو يولد آخر في الفراغ القاتم الذي يملأ كوخ متسول؟

إن هذه المعضلة هي التي تقضي بضرورة تقديم بعض الإيضاحات عن الله فيما يتعلق بنظم خلقه المتعددة. والفلسفة الهندوسية تحل هذه المسألة بالقول إن الله لم يتخذ أبدا أي قرار تعسفي فيما يختص بكونه الخالق. وعلى عكس الأديان الأخرى في العالم، يعتبر الهندوس أن الأرض هي مكان العقاب والجزاء. وحسب هذه الفلسفة فإن أسلوب الحياة على الأرض هو الذي يحدد شكل مستقبل الحياة التي تُمنح للروح في تناسخها التالي. والإله الأعظم براهما هو الذي يحكم على كل عمل تقوم به الحياة خلال رحلتها على الأرض. فالمستقبل يتوقف على الكارما (أي الأعمال) الخاصة بها.

إن الحياة والموت منسوجان سويا كجزئين لا ينفصلان في النظام الأزلي للخير والجزاء، والجريمة والعقاب. ولكن المشكلة هي أنه عندما يختار الإله الروح من مقرها في الفضاء الذي تهيم فيه، ويأتي بها إلى أسفل.. إلى الأرض.. لكي يربطها بالمادة في شكل من أشكال الكائنات الحية، في هذه اللحظة.. يقضى فيها الإله على الروح بالسجن في نطاق ربطها بالمادة بدون أن يكون لها كارما سابقة، أي بدون أن يسبق للروح اقتراف إثم تستحق عليه هذا السجن. وهذا السجن الذي يُفرض على الروح هو الذي يُشكل انتهاكا حادا لمبدأ العدل من جانب ذلك الإله، الأمر الذي يجعله هو نفسه.. حسب قانون الكارما.. يستحق أن يُنتسخ إلى أدنى درجات أشكال الكائنات الحيوانية.

وعودة مرة أخرى إلى بحث موضوع الكارما وكيفية عملها.. إذ يجب أن نفهم أن هذا نظام في غاية الدقة، وهو يأخذ في الاعتبار حتى أدق

التباينات في أمور السلوك الطيب والفاسد في الحياة على الأرض. وهذه التباينات والاختلافات هي التي تعين الإله لكي يُصدر حكمه بعقاب يكون شديدا أو بسيطا، أو بجزاء يكون كبيرا أو صغيرا.

وكل جريمة لا تكون لها بالضرورة عقوبة تقتضي أن يُنتسخ كل إنسان مخطئ فيتحول إلى حيوان آخر. فمثلا الإنسان الذي كان ملكا في الحياة السابقة يمكن أن يتحول إلى متسول فقير في الحياة التالية. وأيضا.. من كان متسولا في الحياة السابقة يمكن أن يتحول إلى حضرة صاحب الجلالة المعظم في حياته التالية، وكل هذا يتوقف على أعمال كل منهما في الحياة السابقة على الأرض، سيئة كانت أو طيبة في نظر الإله.

وكما سبق إيضاحه.. تتوقف عملية تناسخ كل كائن على مدى ما يأتية من أعمال.. صالحة كانت أم طالحة، فيمكن مثلا لإنسان أن يتحول إلى دودة في الحياة التالية، مما يكون مفاجأة غير سارة له بالتأكيد، ولكن ليس له سوى أن يلوم أعماله السيئة التي اقترفها في حياته السابقة.

ولكن.. أين تبدأ هذه السلسلة؟ هذا هو السؤال الحقيقي، وهو لغز أزلي لم يُحَل بعد. فإذا كان كل تناسخ يتطلب وجود حياة سابقة، فكيف بدأت السلسلة؟ بالطبع لا يمكن تجاهل هذا السؤال بدفع سلسلة الأسباب والمسببات إلى الوراء أكثر وأكثر في الزمن السحيق، فإن هذا يتطلب أن تكون كل أشكال الحياة أزلية، هي وما يخص كلا منها من كارما. وهذا افتراض لا يمكن أن يقبله حتى أكثر الباندیت الهندوس واقعية في التفكير، لأن الأزلية في العالم الحيواني تجعل عملية الخلق (أي ربط الروح بالمادة) عملا غير ذي مغزى ومعنى. وعلى هذا فإن البديل الوحيد هو أن تكون الكارما.. أي الأعمال وما يترتب عليها من نتائج مرتبطة بعضها ببعض في شكل دائرة. ولكن هذا غير ممكن أيضا، لأن هذه الدائرة اللانهائية من الكارما ونتائجها من سوء الجزاء أو حُسنه لا يمكن أن تكون بغير بداية وبغير نهاية. إذ أنه لا يمكن عقليا ومنطقيا تصور دائرة أزلية من الأسباب

والمسببات إلا إذا كانت جميع حلقات هذه السلسلة متشابهة في تطابق تام. أما إذا كان هناك أدنى تغيير في طبيعة إحدى الحلقات، فإن البداية والنهاية تتحدد على الفور. إن الحلقات التي تبين مثلا اتجاها دونيًا أو فوقيا، بناء على وقوع تدهور أو تحسن، لا يمكن أن تكون حلقات في دائرة أزلية.

ولنعد بنظرتنا الفاحصة مرة أخرى إلى المشهد الذي يُصَوره الفيدا عن كيفية بداية الحياة وأصل الأنواع. إذا كانت هي سلسلة دائرية، كما يصر على ذلك كهنوت الهندوس، فإنه بعد أن يصل التدهور إلى أدنى مستوياته، فإن حلقات السلسلة لا بد وأن تكون قد تغيرت تماما و لم يعد هناك وجه شبه بينها وبين الحلقات التي كانت في بدايتها. وبعد أن تكون الحياة الإنسانية للبشر قد انمحت تماما من على وجه الأرض و لم يبق غير الحياة الحيوانية في دركات متدنية، وهي تنْزلق دوما إلى الاتجاه الأسفل بسبب إصرارها المستمر على اقتراف الإثم، فلا يبقى سوى ربطها مرة أخرى ببداية جديدة حتى تكتمل الدائرة. والحياة على الأرض.. كما رأينا حسبما يقول الفيدا.. تبدأ دائما بالريشي الأربعة وهم جالسون فوق سطح العالم على إحدى قمم الهملايا. فكيف بالله يمكن لحشرات الهوام، وحشرة أم أربعة وأربعين، والجرذان، والظِربَّان الأمريكي (Skunk وهو حيوان كريه الرائحة بفظاعة شديدة)، وهذه الأشكال من الحياة تُعتبر الأدنى والأحط بالنسبة للبشر الخاطئ، فكيف يمكن لهؤلاء أن يتصلوا بحلقة البداية العظيمة العالية الصالحة والطاهرة في شكل الشخصيات الأربع من الريشي حتى تكتمل الدائرة؟ إن دائرة التناسخ هذه التي وصفناها لا يمكن أبدا أن تتصل ببدايتها أبدا، فلا يمكن بالتالي أن توصف بأنها أزلية، لأن الأزلية تقتضي أن تكون هناك استمرارية غير منقطعة.

أما إذا حاولنا غصبًا أن نوصل نهاية هذه السلسلة ببدايتها، فإن النتائج المترتبة على ذلك سوف تكون بشعة لمن أراد أن يتصورها. وتخيل

مثلا حية جالسة وهي متكورة على نفسها وقد وضعت ذيلها في فمها، هل يمكن لعاقل أن يقول إنها دائرة أزلية بغير بداية ولا نهاية؟ إن الذيل هو الذيل حتى ولو كان مضغوطا بقوة بين فكي الأفعى. إن هذه الدائرة سوف يكون لها رأس وسوف يكون لها ذيل؛ أي سيكون لها بداية وتكون لها نهاية. ولن يمكن لأي شخص في قلبه مثقال حبة من احترام للريشي، وهم أربعة، سوف يعزو مولدهم مرة أخرى في تناسخ من ذيل يتكون من أدنى وأحط أنواع الوجود الحيواني.

ونحن نأمل ألا يكون أحد من الهندوس، سواء المتعلمين منهم أو الجاهلين، من المؤمنين بهذا الخيال الشاذ الغريب للدائرة الأزلية. إن الطبيعة نفسها تفضح زيف هذا التصور كلية، ولا يوجد من دليل على صحته مطلقا.

وموضوع الكارما يجب أن يُختبر أيضا من زاوية أخرى. فإن لفظ الكارما ينطبق على كل الأعمال التي يكون الفاعل مسؤولا عنها.. أي أنه سوف يكافأ إذا كانت أعماله طيبة، وسوف يعاقب إذا كانت أعماله سيئة. وهذا يقتضي أن تكون الإرادة الإلهية في تعريف الخير والشر واضحة تمام الوضوح بتحديد الأعمال الصالحة والطالحة، وإلا فلا يستطيع أحد أن يعرف ما الذي يوافق عليه الله وما الذي يستنكره. ومن أجل نفس هذا السبب.. أي من أجل بيان ما يَرضى عنه الله وما لا يرضى عنه.. وُجد الأربعة العظماء من الريشي في بداية زمن الجنس البشري. فإن لم تكن تعاليم الفيدا قد أوحيت إليهم، لما عرف الناس ما هو الخير المطلوب منهم، ولا الشر الذي عليهم أن يتجنبوه.. وبالتالي لم يكن عليهم من حساب ولا كانوا مسؤولين عن أعمالهم. وعلى ذلك فإن قانون الكارما ينطبق على البشر فقط الذين أُعطوا قائمة واضحة — من قِبَل الريشي الأربعة الأولين- من الأوامر والنواهي.

وأما حينما نأتي إلى الكائنات الحية عدا الإنسان، فإن المشكلة تكون أكثر تعقيدا. فهل كل هذه الكائنات لها كُتبها الواضحة المحددة

المستخلصة من القانون الإلهي؟ فإن لم تكن هذه هي الحال.. فكيف تحكم هذه الكائنات سلوكها، وكيف يُحكم عليها حسب قوانين الكارما؟ هل تحل الغريزة الحيوانية لديها محل القوانين الإلهية لدى الإنسان؟ وإذا كانت الغرائز عند الحيوانات هي التي تملأ فراغ التعاليم الإلهية فكيف تمارس هذه الكائنات حقها في الاختيار؟

وأيضا.. عند البشر.. نجد أن التعاليم الإلهية تصل إلى البشر عن طريق البشر (فلا شك أن الريشي الأربعة كانوا من البشر). ولكنه من الصعب تصور تأدية وظيفة النبوة بواسطة الكائنات الحيوانية. فكل نوعية من الحيوانات لها دائرتها المحدودة من الإدراك، الخاصة التي تحكمها، ولها غرائزها الخاصة التي ترسم لها طريقة معيشتها. وإذا كان لا بد من إرسال أنبياء فلا مناص من إرسال أنبياء في كل نوعية من النوعيات الحيوانية. وإذا كان من المحتم أن يولد ريشي من الحيوانات فلا بد أن يولدوا بين السباع وبين الضباع، وبين الدببة السوداء وبين الدببة البيضاء، وبين الزواحف وبين جميع الأنواع المتباينة من الأسماك والأشكال المختلفة من الطيور. فهل يمكن لأحد أن يتصور مثلا وجود نبي من الغربان أو ريشي من الذئاب؟

ولكن ليس هذا كل ما في الأمر.. فإذا كانت الغرائز عند الحيوانات تعتبر البديل للتعاليم الإلهية عند البشر، يظل السؤال عن حق الاختيار في ضوء وجود الغرائز عند الحيوان يحتاج إلى إجابة. فهل يمكن للحيوان أن يقبل أو يرفض النوازع الغريزية لديه؟ إنه من النوازع الغريزية عند الحصان أن يأكل العشب أو الحبوب، فهل يمكن للحصان أن يرفض الانصياع لهذا الأمر الإلهي؟ وإذا اختار الحصان أن يكون شريرا، فهل يمكن له أن يغير غذائه من الخضراوات إلى اللحوم، وبذلك يخالف القانون الإلهي الغريزي مخالفة صارخة؟ نعم.. في هذه الحالة يحق للإله أن يعاقب هذا الحصان باعتباره حصانا شريرا عاصيا، وربما تكون العقوبة المناسبة لهذا الحصان هي أن يتحول في الحياة التالية إلى حمار أو إلى كلب. فماذا لو أن هذا

الحمار أصر أيضا على المعصية وسوء السلوك الذي تسبب في ولادته كحمار، فاستمر في أكل اللحوم مفضلا طعم لحم الكلاب على طعم العشب الأخضر. إن المرء ليعجب.. إلى ماذا يمكن أن يتحول هذا الحمار في التناسخ التالي – ربما يتحول إلى كلب يُترك تحت رحمة الحمير العاصية الشريرة الأخرى لتنهش لحمه – يعلم الله!

إننا نقدم هذه المشاهد الافتراضية لنكشف ونوضح الخزعبيلات الموجودة في فلسفة تناسخ الأرواح، وهي الفلسفة المبنية على الفهم الهندوسي الحالي لتعاليم الفيدا. ولكن ليس في مقصودنا بتاتا أن نجرح مشاعر أحد.

إن نفس هذا الإيضاح الافتراضي ينطبق على كل المملكة الحيوانية. فإذا كان الأسد مثلا يُعتبر أسدا طيبا صالحا إذا ظل مطيعا لغرائزه الحيوانية التي وضعها الإله فيه، فإن عدم احترامه لحق الآخرين في الحياة سوف يكون دلالة واضحة على عظيم نبله وكريم خلقه. ولكن.. من ناحية أخرى.. إذا توقف الأسد عن أكل اللحوم، ضاربا بخلقه الكريم ونبله العظيم عرض الحائط، فإن مثل هذا الأسد "الخضراوي" آكل الخضراوات.. لا بد له أن يُعاقب عندما تتناسخ روحه في الحياة التالية، وربما تهبط مكانته إلى نسر من سباع الطير يأكل الجيفة. وهكذا فإن الإله سوف يحكم على الوحوش والكواسر التي تعيش في الغابة بأنها نبيلة الأخلاق.. إذا استمرت فقط في اتباع غرائزها غير النبيلة.

لا بد أن يكون قد اتضح الآن أنه لا يمكن بتاتا اعتبار السلوك الحيواني القائم على غرائز الحيوانات هو القانون الرباني في الحياة، ما دام الحيوان غير مخيَّر في اتباع هذه الغرائز أو عدم اتباعها. فإذا أصر المدافعون عن تعاليم الفيدا على أن السلوك الغريزي للحيوان هو البديل للتعاليم الإلهية، فإنه يترتب على ذلك أن جميع الحيوانات يجب أن تترقى إلى مرتبة البشر في التناسخ التالي لهم، لأنهم يتبعون غرائزهم بدقة شديدة – بل

بشكل أحسن وأفضل مما يتبع البشر القوانين الإلهية. إن هذا الافتراض في غاية الخطورة، فهو يؤدي بالضرورة إلى انقراض كل أنواع الحياة غير البشر، مما سوف يؤدي إلى انفجار سكاني مهول، مما يدفع البشر إلى زمن بداية الدهر. فهل يكون هناك طعام يكفي لكل هذه الأعداد التي لا تُحصى أم أنهم سوف يتحولون إلى آكلي لحوم البشر كحل بديل لمواصلة الحياة؟ الله وحده أعلم!

ولكن لحسن حظ الجنس البشري.. لا يمكن تصور وجود قانون للكارما يعمل بين غير البشر من الكائنات الحيوانية. فإن الأرواح الخاطئة إذا حُكم عليها مرة أن تتناسخ في صورة حيوانية.. تظل دائما وأبدا في صورة حيوانية، ولا يمكن لها بتاتا أن تتخلص من إسار وقيود الجسد الحيواني، ولا أن تعود مرة أخرى إلى مقامها العالي المتمثل في الجسد الإنساني المفقود. وهكذا يأخذ نظام الكارما بالإنسان من أقصى طرف إلى أقصى الطرف الآخر. فأي طرف يُفضله الإنسان إذا كان له حق الاختيار؟ بالطبع لا هذا ولا ذاك.. طبعا إذا كان لديه ذرة من عقل أو حكمة. أو.. لعل الاختيار الوحيد والحكيم هو.. أن لا يكون.

ونرى أنه من المناسب هنا أن نشير إلى أن النظام الهندوسي لعقيدة تناسخ الأرواح يعطي أيضا خيارا ثالثا، ولكن للقلة النادرة التي لا قيمة عددية لها.. كالقلة من البشر الذين يعيشون حياتهم في كمال تام، كما يفعل الريشي الأربعة القدماء مثلا، فإن أرواحهم لا تتناسخ على الفور، وإنما هناك فترة طويلة من الراحة لأرواحهم. وهذا هو المنظور الهندوسي للنيرفانا، ولكن هذه المرحلة من الراحة.. حتى ولو استمرت لملايين السنين.. فلا بد لها أن تنتهي، وفي النهاية.. بعد ما تتمتع هذه الأرواح بفردوسها خلال مرحلة النيرفانا، لا بد لها من الرجوع مرة أخرى إلى الأرض للاشتراك في عملية تناسخ الأرواح.

ولكن.. لعل هذه الدراسة للميثولوجيا الهندوسية قد تشعبت إلى حد

كبير، ولعل من حق علماء الدين الهندوس أن يفصلوا بين ديانتهم وبين متطلبات العقل، كما فعل الكثير من أتباع بعض الديانات الأخرى. وفي هذه الحالة، وبالرغم من كل ما تم برهنته تبيانا لعكس ذلك، فإن هؤلاء العلماء لا يزالون يصرون على أنه.. بشكل ما.. هناك ميزان يزن الله به أعمال الأنواع المختلفة من الحيوانات، وأنهم جميعا يخضعون لنظام غير مرئي من الكارما.

فهم يرون أن كل فرد حي من بين جميع الأحياء سوف يُحاسب حسب نوع الكارما الخاص به، فإذا أساء السلوك واحد من البشر أثناء حياته، فإنه سوف يتناسخ في زيارته التالية للأرض إلى واحد من الحيوانات، التي هي أقل درجة من البشر. وبالمثل.. فإن الحيوان الذي يحسن السلوك يمكن أن يترقى إلى بشر في التناسخ التالي لروحه. فالكلب مثلا الذي يحسن السلوك.. قد يولد في بيت سيده السابق بل وفي شخص سيده أيضا، بينما يمكن لسيده الذي كان سيئ السلوك أن يولد مرة أخرى في صورة كلب للسيد الجديد من البشر (أي الكلب سابقا).

ويبدو أن هذه الفلسفة لها جانبها المنطقي. وبالرغم أن الإله يبدو فيها كالدكتاتور المطلق، فليس من حقه أن يُخضع الروح الحرة التي لم يخلقها من العدم، ويُخضع كذلك المادة الحرة التي لم يخلقها أيضا من العدم، فيجعلهما في سلسلة مستديمة لا نهائية من العبودية، ومع هذا فإنه يفعل ذلك على أساس نظام من العدل! فإنه يجمع بين الروح والمادة دائما، كحسن جزاء أو سوء عقاب، حسب الكارما التي تخص الشخص في سياحته السابقة على الأرض. وأيضا.. كما سبق ذكره.. هناك فرصة، مهما كانت صغيرة، أن تصل روحه إلى حالة النيرفانا، التي تُعتبر خلاصا مؤقتا من السجن المادي. وعلى ذلك فإن ما نبغضه باعتباره الموت.. قد يكون في حقيقة الأمر نعمة عظيمة تحرر الروح من ربقة الجسد.. شريكها المادي. وكم من الزمن يتمتع الشريكان المنفصلان بحريتهما وخلاصهما

من هذه الشراكة المفروضة عليهما، هو سؤال سوف تتقرر إجابته حسب سلوكهما أثناء علاقة التزاوج التي كانت تربط بينهما على الأرض. فإذا أحسنا السلوك، وكان الجسد المادي يعتني بمتطلبات الروح.. بينما تهتم الروح بمقتضيات الجسد المادي، فسوف تطول الفترة التي ينفصلان فيها بعضهما عن بعض، وينعم كل منهما بحريته. وهما لا يختلفان في هذا عن علاقة الزوج وزوجته. فإن أكثر الأزواج نبلا هما اللذان يقضيان حياتهما في مودة ورحمة، وتربط بينهما المحبة والوفاء، ولهذا فإنهما ينالان أعلى درجات النيرفانا. وهذا يعني أن أرواحهما لن تنفصلا فقط عن جسديهما.. بل إنهما سوف يفترقان لمدة تتطاول لتقترب من الأزلية. وأما الزوجان الخاطئان اللذان يرتكبان الفواحش، فهما قد يعودان إلى الأرض سريعا مرة أخرى وفي فترة قصيرة بعد أن يموت كل منهما، فيعودان لكي يشتركا مرة أخرى في صحبة تحكمها الفواحش والمتع الجنسية. فيا للهول! أي جحيم هذه التي تكون على الأرض وأي فردوس هذا الذي يكون في السماء!

قد تبدو الفلسفة الهندوسية للحياة والموت والخلود خالية من أي عقل أو منطق في نظر العالِم الأكاديمي، ومع ذلك فلا يمكن إنكار أن هذه الفلسفة لها سحر خاص يجعل الكثيرين من الناس.. رجالا ونساء.. يعتنقونها، حتى في هذا العصر الحديث، بغير أن يعطوا أية أهمية لما يشوبها من نقص في المعقولية والمنطقية. ولعل أشد عوامل الجذب إلى هذه العقيدة هو الأمل في العودة مرة أخرى إلى هذه الحياة التعيسة وإلى هذا العالم البائس. إن الإنسان هو أكثر الألغاز غرابة.. إنه يشتكي مر الشكوى طوال عمره من ويلات الحياة، آملا أن يضع الموت نهاية لها، ومع ذلك فإنه يشتاق أن يعود مرة أخرى إلى نفس الزنزانة التي كان يرجو الخروج منها.

إن سجن الحياة وقيود الألم هما في الحقيقة مسميان لشيء واحد، فكيف يمكن النجاة من قيود الألم بغير الموت؟ ومع هذا فإن الإنسان

يشتاق دائما إلى القيام بعدد غير محدود من الزيارات لهذا المقام التعيس. ومن الواضح أن سحر هذه الفلسفة يكمن في حب الحياة المطبوع في نسيج كل كائن حي.

ومع هذا فإن أولئك الذين شغفهم الوعد بغد آخر.. عليهم أن لا ينسوا أن المجتمع الإنساني ككل قد تدهور بدرجة كبيرة في المجال الأخلاقي والسلوك الديني. وبالتالي فإن أولئك الذين يحلمون بالعودة إلى الحياة الإنسانية ليولدوا بشرا مرة أخرى، فسوف تظل أحلامهم مجرد أحلام من المستبعد أن تتحقق. فإذا كانت فلسفة الكارما، حسب ما يقوله الفيدا فلسفة صحيحة، يكون من الأكثر احتمالا أن الغالبية العظمى من البشر اليوم سوف تُعاد ولادتهم غدا كقرود وخنازير برية وتماسيح أو دود. فأن يعود المرء مرة أخرى إلى الحياة قد يكون أمرا جيدا، ولكن هل تستحق هذه المخاطرة دفع مثل هذا الثمن الفادح؟

وعودة مرة أخرى إلى موضوع الريشي الأربعة، الذين تلقوا الفيدا.. فإذا قبل الإنسانُ الإطارَ الزمني الذي يُقال إنهم جاءوا فيه، فلا بد أنهم قد ولدوا منذ دهور بعيدة قبل أن تبدأ الحياة على الأرض، في عصر كان الغلاف الجوي للأرض خاليا من الأكسجين. ويظل السؤال الحائر هو: أي كارما سبقت ترقي هؤلاء الأربعة إلى مقام الريشي؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يعيش في جو خال من الأكسجين جيلا بعد جيل، وما الذي كان يتغذى عليه هؤلاء.. هو أيضا من الأسئلة الحائرة التي تستلزم الإجابة. إن كل ما كان يعكر صفو الهواء والمحيطات في ذلك الوقت هو أشكال فطرية من الفيروسات والبكتريا. فإما أن ذلك الجيل الأول من أولئك الرجال الصالحين كان يعيش على هذا الطعام، أو أن الحياة الإنسانية لم تبدأ على الأرض بالرجال الصالحين وإنما بدأت بالفيروسات الصالحة والبكتريا الفاضلة. وإذا كانت حسابات الزمن المتعلقة بظهور الريشي الأربعة أو أي رجال صالحين على الأرض ليست صحيحة، إن لم يكن ظهورهم في وقت

مبكر كما يظن بعض البانديت الهندوس، فإن بداية الحياة على الأرض وبداية الفيدا لا بد وأن تكون قد حدثت في وقت متأخر جدا. وبالطبع فإن ظهور الحياة لا يمكن أن يكون قد تم قبل أن تتكون مجموعة جزر التبت. وفي الواقع.. إن شبه القارة الهندية كلها قد تكونت في الشكل الذي نراه اليوم منذ حوالي ما يقرب من عشرين إلى أربعين مليون عام. ورغم أن الهند قد تكونت في شكل شبه قارة منذ ما يقرب من مائة وستين مليون عام إلا أنه كان عليها أن تبدأ عملية الاندماج مع القارة الآسيوية. وهذا الاندماج في الواقع هو المسؤول عن تكون وظهور جبال الهملايا والجبال العظمى الأخرى بما فيها جزر التبت. ولا يهم كثيرا متى.. على وجه الدقة.. بدأ تكوين التبت في إطار هذا السلّم الزمني، فإن دليل الحفريات يؤكد بما لا يدع أي مجال للشك في أن الحياة قد بدأت منذ حوالي ثمان مائة مليون عام قبل تكوين شبه القارة الهندية. وأيا كانت هوية أولئك الذين جلسوا على قمة هضبة التبت، فهم حتما لم يكونوا من الجنس البشري، لأن البشر بدأ ظهورهم على وجه الأرض في وقت أكثر تأخرا من ذلك. وفي ذاك الوقت كانت الديناصورات هي أكثر أشكال الحياة تقدما. وبالطبع لا يمكن للمرء أن يتصور ريشي من الديناصورات مهما بلغت درجة خياله. وبالتالي إذا أخذنا بحرفية تعاليم الفيدا بما أصابها من تحريف كما نجدها اليوم، فإن الريشي وأصحابهم الصالحين لا بد أن يكونوا قد هبطوا على الأرض من بعض الكواكب الغريبة. ولكن هذا الحل، إذا جاز أن يُسمى حلا، سوف يخلق مشكلة أخرى أشد تعقيدا وأكثر سخافة، إذ من المحتم أن لا تكون قصة الكارما قد بدأت بالريشي الأربعة وإنما بأشكال غريبة سحرية متباينة من الحياة انبثقت وتطورت عن الخلايا الحية الأولى على الأرض منذ ألف مليون عام.

إن التقييم العادل يُبين بوضوح أن عقائد الكارما وتناسخ الأرواح هي من نتاج عصور الانحطاط والتدهور التي ألمت بالفلسفة الهندوسية.

ولا بد أن هذا التدهور قد حدث عندما حاول الكهنوت الهندوسي إيجاد حلول فلسفية لمشكلة الحياة والموت، والثواب والعقاب، معتمدين في ذلك على أفكارهم واستنتاجاتهم، بغير أن تكون لديهم هداية سماوية. ومع هذا فإن الإنسان لا يزال يلمح آثارا من الوحي الإلهي في الفيدا. أما الجهالات التي نجدها اليوم في الفيدا فلا بد أن تكون نتيجة الإضافات التي أدخلتها اليد الإنسانية على الفيدا.

وقبل أن ننتهي من هذا البحث.. نود أن نبحث طبيعة اليوجا، ونتفهم مكانها في الإطار المعقد للفلسفة الهندوسية. واليوجا على درجة من الأهمية بالنسبة للموضوع الرئيسي. فقد انتشر بين الناس أنه من خلال التأمل والتفكير العميق.. يستطيع اليوجي (الذي يمارس اليوجا) أن يصل إلى ينبوع المعرفة والحقيقة الموجود داخل كيانه. غير إنه من الصعب تحديد ما إذا كان نظام اليوجا في الأصل هندوسيا أو بوذيا. إن اليوجا لا تعدو سوى أن تكون وسيلة للمعرفة.. ولكن لم يحدث بتاتا للورد كرشنا أن استعملها.

غير أن هذا ليس كل ما يختص باليوجا.. إذ بالإضافة إلى قيمتها كوسيلة تأملية، فإن اليوجا تُعتبر أيضا علما متطورا من علوم الطبيعة التي تحاول استثمار القوى الكامنة في الجسد الإنساني إلى أقصى درجة. وقد أمكن القيام بأعمال تُعتبر من المعجزات بواسطة استخدام اليوجا. ويُقال إنه يمكن للمرء من خلال ممارسة اليوجا أن يصل إلى حالة من شبه توقف للحياة، كما يحدث لبعض الحيوانات في بياتها الشتوي حين تكاد تتوقف فيها كل عمليات التمثيل الحية، وتبقى الحياة معلقة بخيط رفيع. ويُقال إن بعض ممارسي اليوجا الذين برعوا في هذا الفن استطاعوا أن يعيشوا لأيام وهم مغمورون تحت سطح المياه. وتحكي بعض الحكايات أنه أمكن للبعض أن يحلل جسمه إلى جزئيات في مكان ما ثم يعود إلى التكون مرة أخرى في مكان آخر، ويا لها من مبالغات!

غير أن بعض القوى التي أمكن بالفعل تنميتها بواسطة تمارين اليوجا

لا يمكن إنكارها أو اعتبارها مجرد مبالغات. فمثلا.. بعض ممارسي اليوجا استطاع أن يحبس أنفاسه لمدة طويلة، حتى إن الإنسان العادي يتعرض للموت عدة مرات خلالها. فاليوجا هي نوع من التدريب الذي يساعد على تحسين وتطوير القوى الجسدية لتصل إلى أقصى طاقاتها. وتُعتبر اليوجا أيضا علاجا ممتازا لتخفيف التوترات العصبية والنفسية.

لقد بحثنا باختصار قدرات اليوجا على تحسين الإمكانات الموجودة في الجسد البشري، وتطوير القوى الكامنة فيه والتي قد تظل خاملة بغيرها. ونفس هذه الأمور يمكن أيضا تحقيقها روحيا بإخضاع الحياة لأسلوب معيشي منظم وسلوك حياتي متوافق مع المبادئ الأخلاقية. والآن نحن نبحث هذه الإمكانات التي يُقال أن نظام اليوجا يحققها لأن ممارسي اليوجا يدّعون بأنه يمكن لهم الوصول إلى ينبوع الحقيقة الكامن في نفوسهم، من خلال عملية التأمل والتدريبات الجسدية والروحية التي يقومون بها. فما هو مبلغ نصيبهم من الخطأ أو الصواب؟ إنها مسألة رأي. فإن لم تُكتَشف تلك الحقيقة الكامنة باستعمال تدريبات اليوجا، وتُقدم إلى العالم ليجد فيها الحل لمشاكل الإنسانية، فلا يحق لأحد أن يقبل أو يرفض ما يدعيه ممارسو اليوجا. ويكون أقصى ما يمكن الإقرار به في الموضوع هو أن اليوجا وسيلة ممتازة للتدريب.. وحسب.

المراجـــــــع

1. VERMAN, J. (1992) *The Vedas.* Oxford & IBH Publishing Co. PVT. LTD. New Delhi, p. 6
2. VERMAN, J. (1992) *The Vedas.* Oxford & IBH Publishing Co. PVT. LTD. New Delhi, p. 4
3. VERMAN, J. (1992) *The Vedas.* Oxford & IBH Publishing Co. PVT. LTD. New Delhi, p. 24